الجو فى القصة

بقلم محمود عزت موسى

قبل أن نستعرض بعض مسائل هذا البحث ، نتقدم بسؤال صغير : هل يخلق جو القصة قبل تكوين القصة ذاتها ، أى قبل الألمام التام بكل أوضاعها وشخصياتها وحوادثها ؟ إن الاجابة على هذا السؤال قد تبدو مربكة ، كثيرة الشعاب ، والواقع غير هذا ، فان أول ما يجب أن نفهمه أن الجو هو الذى « يؤدى » أو هو الذى يساعد على تأدية عملية الخلق فى الرواية أو القصة ، ومعنى هذا أن القصة لا يمكن أن تخلق أو تتكون أجزاؤها بعضها إلى بعض ، كما لا يمكن أن تمر على أدوار التكوين حتى تصب فى قالبها الأخير قبل أن يسبق هذا وجود الجو الذى تقع فيه هذه العمليات ، إذ أن القصة كأى شىء حى يحتاج إلى الجو الذى يؤهل له عملية الظهور فى الحياة والنمو والاكتمال

ذكرت (آنا جريجو فنا) فى مذكراتها عن زوجها فيدور دوستويفسكى القصصى الروسى الخالد أنه لما كان فى سويسرا ، كان كثير الاضطراب والملل والسأم ، وأنه لم يألف سويسرا ولا أهلها كثيراً ، بل كان كثير التحنان إلى روسيا دائم الشوق إليها . وقد بدا هذا ظاهراً فى رسائله التى كان يبعث بها إلى بعض خلصائه فى روسيا ، وقد كان دوستويفسكى فى تلك الآونة التى قضاها فى سويسرا يعانى ضيقاً مالياً خانقاً ، وكانت الديون التى ألزم نفسه أداءها بعد وفاة أخيه ميشيل تجعله يرى فى سويسرا مأمناً لو كان رجلاً يلوذ بالفرار من المسئوليات والدائنين الذين ينتظرون عودته إلى بلاده لمطالبته بسداد ديونهم أو زجه فى سجن المدينين حتى يوفى دينه . . لكن هذا الرجل العظيم لم ينقل قط يوماً أثناء إقامته فى سويسرا الحنين إلى روسيا حتى أتيح له ذلك بعد سنوات . فلم يكد يصل إلى وطنه حتى أحس بأن الحياة قد عادت تدب فى عروقه قوية مشبوبة . . مع أن وفود الدائنين لم تكن لتنقطع عن زيارة بيته على أثر وصوله !

كتب دوستويفسكى فى بعض رسائله « إننى أحتاج إلى الجو الروسى حتى أستطيع أن أكتب كما أريد » وهذه العبارة الدقيقة تكاد تحل بنفسها موضوع هذا البحث . فان هذا القصصى على الرغم من أنه عاش فى روسيا طوال حياته إلا سنوات قليلة قضاها فى الخارج ، ومع أنه استطاع أن يختزن فى ذاكرته وقلبه وعقله الباطن كل الاحساسات والحوادث ، وأن يخلق الجو الروسى فى كافة رواياته التى ألفها فى سويسرا كنتيجة للاعتبارات السابقة ، إلا أنه مع هذا كله خشى إن هو ابتعد طويلاً عن وطنه أن يخف ويتضاءل مقدار الجو الذى اختزنه فى حياته الماضية ، وشعر بحاجته — على حد التعبير الادبى — إلى أوكسجين روسى يملأ رئتيه . لأنه استشعر بأنه مهما استنهض كل الذكريات فى خلق الجو فانه فى حاجة إلى أن يكون دائماً فى ذلك الجو ليطمئن على فنه من أن يختلط بأجواء أخرى فيفسد وتضعف روعته . أو تشيع فيه الفوضى والاضطراب

إن الفنان العظيم لابد أن يكون له جو خاص ، هذا الجو هو ذوب مواهبه ، هو العالم الذى يضع فيه أفكاره ، ويخلق بين جنباته أعماله الفنية ؛ فاذا رأينا رجلاً مثل دستويفسكى يحتاج إلى

وكرامة النفس ، ومتاع العيش . ومن فوق ذلك كله مايستشعره من سعادة لا تعدلها سعادة فى كل لحظة من لحظات حياته العلمية الموفقة

ولقد أحس بأن الناس بدأوا يعجون ذلك الصنف من المعاهد الذى تهيمن عليه الروح المدرسية . وبدأت الحياة تلفظ هؤلاء الذين انطبعوا بطابع تلك الروح ، فصاروا بالآلات التى تملأ لتفرغ أشبه منهم بالأحياء الذين حيويتهم دائبة على الخلق والابداع . ولئن لم يتجل هذا المظهر اليوم تجلياً قاطعاً يمتاخ الشبهة ، فان الحياة صائرة إليه ، ما من ذلك بد ؛ وبين أيدينا مقدماته جلية

فليعرف الأزهر ذلك وليتدبره تدبر الحكيم البصير ، ولا يصرفه المتاع العاجل عن العاقبة القريبة ، وعن حسن تفهم الأمور على وجهها الصحيح ، وعن النظر فى منطق الحياة الذى لا يتخلف ؛ ولا تفرنه الحياة الدنيا عن الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل

محمد ط الطاهرى
بكلية الآداب

جو روسيا لتكوين أعماله الأدبية ، فهو يعطى لهذا الجو شكلا ولوناً ورائحة تختلف عن غيره من سائر القصصيين الروسيين وإن اتفقو جميعاً فى شىء واحد ، وهو الجو العام لبلادهم ، إلا أن لكل منهم جوه الخاص . ومن هذه النقطة تتفاوت أقدار الفنانين تبعاً لقدرة كل منهم وسمو فنه وحذقه عن الآخرين

والقصصى الذى لا تلمح فى عمله جواً خاصاً به ، ولا تحس بهذا الجو أو وجوده ، أو ترى جوه خليطاً من تأثرات شتى ؛ هـذا القصصى لا يمكن أن يكون قصصياً صحيحاً . لأن التركيز ينقصه ، بل هو قصصى « اكتسبْ » فن القصة اكتساباً ، والتقط موهبته الفنية من مواهب الكثيرين ، واستلب من كل الأجواء الأدبية التى عاش فيها شيئاً ، ليعيش لحظات على التقليد أو المحاكاة . وهذا الفنان تبدو حياته الفنية مهددة دائماً بالموت والانتهاء ، لأنه شائع بين كافة الفنانين ، لاشخصية له بينهم

إن أهمية وجود الجو فى القصة لاحد لها . فان هذا الجو هو الذى تخلق فيـه الشخصيات والحوادث ، وكلما كان القصصى أو المصور ، أو الموسيقى ، أو الشاعر ، مؤمناً بالجو الذى يعيش فيـه ارتفع فنه إلى الذروة ، واستطاع أن يبرع فى ايضاح عمله الفنى

قد تكون القصة — فى موضوعها — بسيطة ، لاشـذوذ فى حوادثها ، ولا مؤثرات مفتعلة كما نرى فى القصص الرخيص ، ومع هذا فان القصصى يستطيع أن يسمو بالحادثة الصغيرة إلى أوج الفن القصصى ؛ وذلك لأن طريقة العرض والتقديم والجو الذى تنطلق فيه القصة هى التى تحيا بها القصة . ومن هنا فقط نستطيع أن نقارن ونفاضل بين القصصيين ، فان القصصى لايمتاز عن غيره بكثرة الاغراب فى الحوادث ، بل هو يمتاز بجوه ، هذا الجو الذى تحيا فيه شخصيات قصصه ؛ حتى ليشعر القارئ بأنه يعيش مع تلك الشخصيات ، وبهذا يحس القارئ أنه أمام عمل فنى جيد ، جدير بالتأمل العميق ، لايمكن أن يذهب أو يضمحل بعـد قليل كما تذهب صور الحوادث التى يقرأها الانسان فى الصحف ، والتى يعتقد بعض الناس — خطأ — أن هذه الحوادث من القصص ، وهذه الحوادث فى المعنى الفنى أحط أنواع القصة وأكثرها تفاهة

ولنقرب هذا ، نقول إن كثيرين يسجنون مثلاً ، فاذا خرج أحدهم من السجن وأحببت أن يورد لك شيئاً عما رآه وأحسه فى المدة التى أمضاها فى السجن اقتصر على ذكر الحوادث ، وهذا شىء عادى يمكن لكل انسان أن يفعله ؛ بينما لايعمد إلى ذلك الفنان الذى يعيش فى جو السجن ، فهو يرى الحوادث التى وقعت له فى السجن فى المكانة الثانية . أى أن جو السجن ساعد مواهبه على أن يكون شخصاً ايجابياً تخلق الاحساسات والتأملات والأفكار ، بعد أن انعكست عليه حوادث السجن المختلفة ، فأخرجها على النحو الذى أحس به ، وهذه هى شخصية الفنان . إذ أن الحادثة تمر به فلا تعبر بسيطة كما تعبر بسائر الناس ، ويرى المنظر ، فلا يراه كما يراه غيره بصورته الظاهرة ؛ بل يراه بعينه الفنية التى تنفذ إلى أبعاد شتى لايمكن أن تخطر على ذهن عادى ، أو تلفت شعوره

إن ثقافة الفنان وسعة اطلاعه لاتكفيان لكى يكون القصصى كاتباً مجيداً ، يستطيع أن يخلق الجو القصصى ؛ وقد يبرع القصصى فى تكوين القصة من كل جوانبها ، ولكنه يفشل فشلاً تاماً فى ايجاد الجو ، ولنضرب المثل على هذا نقول : إن الأغانى الريفية تحس فيها حرارة الايمان بالبيئة ، وهى على الرغم من صراحتها وخلوها من الزخارف الكثيرة التى تفسد طبيعة الأغانى وتباعد بينها وبين الحقائق ، وقربها من الطبيعة وتعبيرها المبين عن مشاعر انسانية مأخوذة من البيئة هى فى قيمتها الفنية أسمى من الأغانى التى لاتعتمد على الجو ، بل تعتمد على الامعان فى التأثير بذكر الهجر ، والوصال ، والدموع ، وما إلى ذلك من العواطف التى يمكن حشدها فى كل أغنية فى أى اقليم . وقد تكون الأغنية الأخيرة فى تجويدها ورقتها وزخارفها ، أحسن من الأولى صنعاً ، إلا أنها مفقودة الطابع

وعلى هذا الوضع نقول بأن « الجو » لايمكن أن يخلق عند الفنان إلا إذا كان مؤمناً كل الايمان بالبيئة ، وحقيقة الفن الذى يعالجه . . . ؟

محمود عزت عرسى